المحاضرة الثالثة

المعجم العربي: النشأة والتطور

ارتبطت نشأة التأليف المعجمي عند العرب بزمن تدوين اللغة العربية، وانتقالها من عهد المشافهة والرواية إلى عهد التوثيق والكتابة، إذ لم يعتن العرب في الجاهلية بجمع لغتهم وتدوينها نظرا لعدة أسباب أهمها[1]:

- انتشار الأمية بينهم فالذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة قبل الإسلام قليلون.
- طبيعة حياتهم الاجتماعية القائمة على الغزو والانتقال من مكان إلى آخر.
- إتقانهم للغتهم فقد كانت العربية عندهم لسان المحادثة والخطابة والشعر.

وحينما بزغ فجر الإسلام دعتهم الحاجة إلى أن يسألوا عن معاني الكلمات ذات الاصطلاح الجديد، كما كانوا يسألون عن بعض الكلمات التي استغلق عليهم فهم معناها[2]. فظهور المعاجم العربية إذن كان لأسباب دينية لغرض المساعدة على فهم غريب القرآن والحديث الشريف، والمحافظة على لغة التنزيل وصونها من الخطأ واللحن، فقد انبرى اللغويون بكل إخلاص وأمانة للذود عن هذه اللغة الشريفة التي استمدت قدسيتها من القرآن الكريم، فبداية الفكر المعجمي العربي نشأت في أحضان الدراسات القرآنية[3].

وفي هذه المرحلة كانوا يلجؤون إلى العرب وأشعارهم لشرح غريب القرآن والحديث النبوي الشريف يقول ابن عباس (ت 68 هـ): "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"[4]، كما يقول: "إذا اشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا إلى الشعر فإنه ديوان العرب"[5].

وتشير الروايات الإسلامية إلى أن الصحابي عبد الله بن عباس كان يُسأل عن معاني ألفاظ معينة من القرآن الكريم فيفسرها للناس، ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربي[6]، وقد جمعت هذه الأسئلة وإجاباتها في كتاب مستقل باسم أسئلة نافع بن

---

[1] إميل يعقوب ، المعاجم اللغوية العربية، دار العلم للملايين، بيروت ، دط، 1985، ص24

[2] محمد علي عبد الكريم الرديني، المعجمات العربية دراسة منهجية، ص21

[3] بتول عبد الكاظم الربيعي، المرجع السابق، ص21

[4] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص119

[5] محمد علي عبد الكريم الرديني، المعجمات العربية دراسة منهجية ص21

[6] رمضان عبد التواب،فصول في فقه اللغة، ص109

الأزرق إلى عبد الله بن عباس، وقد عدَّ هذا الكتاب النواة الأولى للمعاجم العربية، نظرا لاشتماله على جملة من الخصائص المعجمية من بينها:

العناية بالوظيفة الأم للعمل المعجمي المتمثلة في شرح المعنى وبيانه.

- الاستدلال على المعنى بذكر الشواهد من الشعرالقديم.
- ذكر السياق أي الآية التي ورد فيها اللفظ المراد شرحه.
- إلا أنه يفتقر إلى بعض المعطيات المعجمية المكملة كالصرف والنحو، كما أنه لا يخضع إلى منهج واضح في ترتيب ألفاظه.

ومن هذا المنطلق تكون الفكرة المعجمية قد وجدت في أذهان العرب منذ الفتح الإسلامي، وإن كانت لم تأخذ الصورة المتعارف عليها الآن، فتفسير غريب القرآن وشرح غريب الحديث في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين يدلان على وجود معجم غير مرتب ترتيب المعجمات الحديثة[1]. ومن أهم كتب الغريب التي ظهرت على غرار كتاب ابن عباس نذكر[2]:

- غريب القرآن لأبي سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري (ت 141هـ) .
- غريب القرآن لعلي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ).
- غريب القرآن لأبي فيد مؤرج السدوسي (ت 195 أو 174 هـ).

إلا أن هذه الكتب لم يصلنا منها شيء، ثم توالت كتب الغريب بعد ذلك ومنها[3]:

- غريب القرآن لأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت 202 هـ).
- غريب القرآن للنضر بن الشميل (ت 203 هـ).
- غريب القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ).
- غريب القرآن للأصمعي (ت 213 هـ).
- غريب القرآن للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت 215 أو 221 هـ).
- غريب القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ).
- غريب القرآن لمحمد بن سلام الجمحي (ت 231 هـ).
- غريب القرآن لمحمد بن عبد الله بن قادم الكوفي (ت 251 هـ).

---

[1] محمد علي عبد الكريم الرديني، المرجع السابق، ص22.

[2] حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، ص34/33

[3] نفسه، ص34

- غريب القرآن لأبي عبد الرحمن عبد الله بن محمد العدوي المعروف بابن اليزيدي.
- غريب القرآن لابن قتيبة (ت 276 هـ).
- غريب القرآن لثعلب (ت 291 هـ).

كما زامنت عملية تفسير غريب القرآن الكريم مرحلة التفكير في بيان غريب الحديث النبوي الشريف، إلا أن التأليف فيه ظهر متأخرا قليلا، ويُعزى أول كتاب من هذا النوع إلى أبي عبيده معمر بن المثنى (ت210هـ) ، وتلاه أبو الحسن النضر بن شميل (203هـ)، ثم ظهرت عدة كتب أخرى في غريب الحديث، منها[1]:

. غريب الحديث لأبي عمرو الشيباني (ت206هـ)

. غريب الحديث لأبي علي محمد بن المستنير قطرب (ت206هـ)

. غريب الحديث لعبد الملك بن قريب الأصمعي (ت216هـ)

. غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت224هـ)

. غريب الحديث لابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)

وأهمها جميعا النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (ت606هـ) وقد رتبه على حروف المعجم.

ولم تقتصر عناية العرب في هذه المرحلة على تدوين غريبي القرآن والحديث النبوي، وإنما كانت انطلاقة فعلية للتدوين والعناية بسائر اللغة شعرا ونثرا. وقد بدأ الاهتمام أولا بالألفاظ التي تدور حول موضوع واحد، فظهرت العديد من الرسائل الموضوعية المتنوعة في شتى مجالات الحياة، جمعت فيها الألفاظ التي تتصل بالأشجار والنبات والكلأ، وبالإنسان وما يتعلق به، وبالحيوان كالخيل والإبل والشاء، وبالأزمنة والأمكنة... كما اختص بعضها بالمعرب والدخيل والأعجمي. ومن أشهر الرسائل الموضوعية في هذه المرحلة:

- . رسالة المطر لأبي زيد سعيد بن أوس (ت215هـ)
- . الإبل والخيل والشاء والوحوش للأصمعي عبد الملك بن قريب (ت 216هـ)
- . النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري (ت215هـ)

[1] المصدر السابق، ص44 -45.

وإلى جانب هذا النوع من الرسائل اللغوية ظهر نوع آخر من الكتب كانت الضرورة إليه ملحة، وهو الذي يشرح الألفاظ ويبين غامضها ويعالج مشتقاتها، خاصة حين ترد في سياق نصي يتوقف فهمه على فهم مدلولها. ومن هنا كانت بداية فكرة المعاجم بمعناها العام والشامل، وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ).

حيث استبعد الخليل بن أحمد فكرة الرسائل اللغوية واستبدلها بمنهج جديد متكامل تتضح معالمه في معجم العين القائم على ثلاثة أسس: الترتيب الصوتي ومبدأ التقليبات وأساس الأبنية.

وتتابعت المعاجم اللغوية من بعده بين متبع لمنهجه ومخالف له، فظهر معجم تهذيب اللغة للأزهري، والجمهرة لابن دريد، ومقاييس اللغة لابن فارس، والصحاح للجوهري، وأساس البلاغة للزمخشري، ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، والمصباح المنير للفيومي... ومن المعاجم الحديثة: المنجد للويس معلوف، والمعجم الكبير (1970)، والمعجم الوسيط (1961) لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

مراحل تطور المعجمية العربية:

يمكن التمييز بين ثلاث مراحل متتالية في نشأة المعجمية العربية كالآتي:

1. مرحلة استخدام المخبرين اللغويين:

وهي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة وتفسيرها من دون ترتيب[1]، حيث توجه اللغويون إلى البادية لمشافهة الأعراب ممن تتسم لغتهم بالفصاحة، وسجلوا الألفاظ التي يستعملونها[2]، كما سمعوها منهم تماما، ودون أدنى تصنيف. ومن أشهر اللغويين الرواة الأصمعي(216هـ) وأبو عبيدة(208هـ).

[1] بتول عبد الكاظم الربيعي، المرجع السابق، ص166.

[2] علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق ، ص27.

2. مرحلة جمع المفردات:

وهي مرحلة تدوين ألفاظ اللغة مرتبة في رسائل متفرقة محدودة الموضوع مبنية على معنى من المعاني أو حرف من الحروف. وخلال هذه المرحلة صنف الأصمعي عدة كتيبات حول موضوعات مختلفة مثل صفات الإنسان، والملابس، والخيل والجمال... وصنف أبو عبيدة عدة كتيبات عن الخيل والجمال والصقور والحمام والأفاعي والنوادر[1].

3. مرحلة صناعة المعجم:

وهي مرحلة صياغة وإخراج المعجم في صورته النهائية، وفيها ظهرت المعاجم الشاملة المنظمة وكان أولها كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي رتب كلماته وفق حرفها الأول بحسب مخارج حروفها، مبتدئا بأقصى الحلق ومنتهيا بالشفتين[2]. ثم تتابعت المعاجم من بعده وتوالت إلى يومنا هذا، بين متتبع لمنهجه ومخالف له، فظهرت معاجم عربية كثيرة، تنوعت أغراضها، وتعددت مناهجها ومدارسها، وذاعت شهرتها عبر آفاق العالم، وصارت أرقى وأنضج المعاجم اللغوية، وشهد بتميزها الغربيون قبل غيرهم، يقول المستشرق الإنجليزي هيوود(haywood) في بحث له تحت عنوان القاموسية العربية: " إن العرب في مجال وضع المعجمات قد تبوؤوا مركزا رئيسا في الزمان والمكان، بين العالم القديم والحديث، وكذلك بين الشرق والغرب"[3].

---

[1] علي القاسمي، المرجع السابق، ص27.

[2] محمد علي عبد الكريم الرديني:المعجمات العربية ، ص34.

[3] نقلا عن: المعجمية العربية في فكر علي القاسمي، بتول عبد الكاظم الربيعي، ص22.